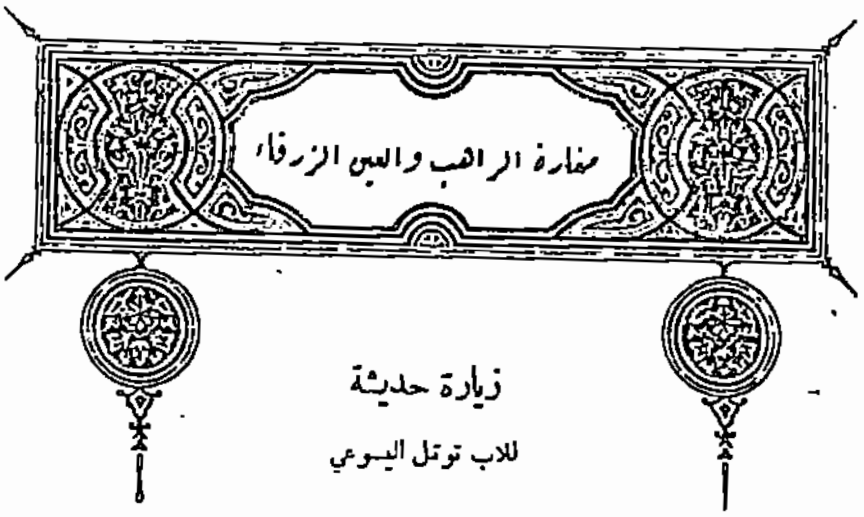

زيارة حديثة

للاب توتل اليسوعي

الى مغارة الراهب ، وقد تسميها العامة مغارة مار مارون ، والى العين الزرقاء ، وهي نبع العاصي ، وجّهنا رحلتنا الصيفية ، هذا العام . سرنا ونحن قسمان : قسم مرّ بالديمان فتبارك بلثم يدي غبطة البطريرك الماروني ، ثم نام في غابة الارز وقطع المكمل مشياً وبات في القرنة السوداء وانحدر من لبنان على سفحه الشرقي . وقسم قطع المسافة بين بيروت ومحطة الزحلة ، عن طريق بعلبك والراس . وفي مساء يوم الجمعة ٧ تموز تلاقينا اجمعين عند نبع العاصي فضربنا هناك خيامنا وثنا . وقد تمكنا من زيارة المغارة المشهورة ، ومن اخذ الرسوم في تلك الربوع ، وبعضها ننشره في « المشرق » مع الكلام عليه .

اول من كتب على البلاد التي نحن في صددها ابو الفداء . وعليه عوّل روّاد الافرنج في البحث عن نبع العاصي . جاء في تقويم البلدان (طبعة باريس ١٨٤٠ ، ص ١٩)

« نهر حماة ويسمى نهر الارنط والنهر المقلوب ، لجريه من الجنوب الى الشمال ، ويسمى العاصي لان غالب الانهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بانفسها تركب البلاد ، ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع منه الماء ، وهو يجري بكليته من الجنوب الى الشمال ، واوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك ، تسمى الراس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها ، ويسير من

الراس شمالاً حتى يصل الى مكان يقال له قانم الهرمل بين جوسية والراس ويمر في وادٍ هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب ويسير شمالاً حتى يتجاوز جوسية ويصبّ في بحيرة قدس في غربي حمص "

ومن سيّاح الافرنج الذين زاروا النبع والمغارة في النصف الاول من القرن الماضي الانكليزي طومسون ، وهو مسافر من حماة الى بعلبك من ٧ الى ١٠ ايلول سنة ١٨٤٦ ، وقد روى ريتر اقواله مطولةً في جغرافيته (١٧ ص ١٥٩ وما بعد) وفيها الوصف المسهب لنبع العاصي ، والكلام على المغارة ، وعلى قانم الهرمل وضروب المذاهب في ذلك.

وممن يرجعون اليهم في معرفة تلك الاماكن الاب ميشل جوليان في كتابه على سيناء وسورية (ص ١٧٧ وما بعد) والاب لامنس في المشرق(٤ : ٢٦٤). هؤلاء كتبوا على الموضوع فاستوعبوا مادته وقد قربها الى عامة القراء الدليل الازرق الافرنسي ، فبيّن سبيل الوصول الى الهرمل ونبع العاصي ووصف البلاد الوصف المختصر المفيد الكافي . فلا زيادة على اقوالهم سوى بعض الملاحظات نضيفها الى الصور التي ننشرها.

مغارة مار مارون

فبينما نحن في بلاد الهرمل ، وبالقرب من نبع العاصي ، كان سيادة المطران الياس ريشا الماروني في راس بعلبك يتأهب لزيارة مغارة مار مارون. وقد بلغنا ان ضبطة البطريرك اوفد سيادته الى ذلك الموضع ليرى رأيه فيما يمكن اتخاذه من التدابير لصيانة المغارة ذكرًا للقديس اب الطائفة المارونية الكريمة

هذا وقد اتفق المؤرخون اخيرًا على ان ليس لمار مارون علاقة بهذه المغارة. لان ديره كان شمالاً ، ما وراء حماة ، قريباً من افامية في وادي العاصي[1]. ولكن مما لا ريب فيه ان موضع المغارة وهندامها واسمها الذي رواه ابو الفدا يؤيد القول انها كانت منسكاً للنساك .

وما ان نقابل بينها وبين ما نعرفه من الصوامع التي رأيناها في فلسطين

١) راجع القاموس اللاهوتي الكبير : مادة موارنة ، للاب ديب.

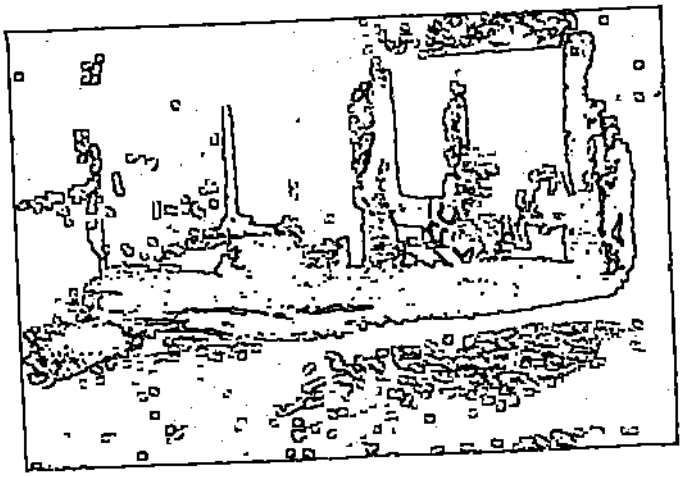

الرسم ١ – داخل منارة الراهب

الرسم ٢ – العين الزرقاء

الرسم ٣ – بلاد المرمل مصوّرة من قائم المرمل

الرسم ٤ – كنيسة الناكية (بلاد بطلك)

وفي سورية ، وخاصة في لبنان ، حتى نكون على بيّنة ان الكهوف الواقعة بالقرب من المياه اتخذها الاقدمون لسكناهم كمغاور نهر الكلب والفرزل ، وبعضها فيه الآثار السابقة للتاريخ ؛ ورب مغارة كانت مدافن ثم توسعت لسكنى الاحياء. وعلى كل فان المغارة الواقعة عند نبع الماصي كانت سكنى للرهبان . قد يميز فيها الزائر قسمين : قسماً مبنية فيه جدران حصن مشققة بمرامر ، تمكن حامية الحصن من رمي الرصاص منها على المهاجمين ومنعهم عن ارتياد الماء في الوادي. وهذا الحصن حديث البناء ، وقد انهارت واجهته الجنوبية ولا تزال واجهته الشمالية ظاهرة بينة كما هي في الرسم . اما المنسك ففيه ايوان كبيران ، الاول متداعي الجدران ، وهو جهة الجنوب ، والثاني في جهة الشمال وجداره قائم نحو الغرب وفيه المرامي التي ذكرناها وهو جزء من الحصن . وبين البهوين غرف متصلة يأتيها النور من طاقات مفتوحة على الغرب. وقد يبين احد الرسوم داخل المكان والبابين ؛ منها يُرقى بسلّمين الى داخل الغرف . ومن هذا المكان كانوا يصعدون الى الطابق الاعلى وفيه الصوامع . وعند الواجهة الغربية للمغارة ثلاث كوى ربما استعملوها للصلاة على نسق الثلاثة الابواب المعروفة في الكنائس البيزنطية (الايكونوستاز). وقد ذكر الاب لامنس مغر النساك وقابل بينها وبين المغارة التي وصفناها فقال :

« ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون والفرزل بمحاسنها . وكانت في الاصل طبيعية سكنتها ، كما يظهر ، قبائل عادية في الاعصار السابقة التاريخ ولعل هذه القبائل فضلتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير . الا ان الخلف حسنوا عمل الطبيعة واضافوا اليه منتديات نقروها في الصخر على احسن هندام مع قبة ذات حنية مقوّسة ودرج داخلي يصعد منه الى الطبقات العليا وبئر عميقة النور تبلغ الى مياه النهر . وكل ذلك منحوت في الصخر الاصم . »

العين الزرقاء

هي في قعر الوادي على مسافة دقائق من المغارة . ماؤها زلال بارد يخرج من الثرق ، وقد ذكر بعضهم انه يأتي لا من الجبل ولكن من سهل البقاع.

ومنه يكوّن الجزء الاوفر من مياه النهر العاصي ولذلك يسمونه نبع العاصي . وقد قدّر الاب جوليان كمية المياه التي تخرج من ذلك النبع متتي متر مكعب بالدقيقة. وليس في نواحي راس بعلبك والمحطة الحديدية ما يُنبئ بوجود هذه العين الفتانة . فالحقول في جوارها جرداء والسهول قاحلة . وهي تجري في القاع متجهة شمالاً نحو الهرمل ، فلا يكشف عليها المسافر الا عند انحداره على سفوح الجوف الذي يمرّ فيه العاصي ويفرق بين جبل لبنان وبلاد بعلبك.

قائم الهرمل

هو نصب اهدى ريتر في وصفه ، وعزاه بعضهم الى ملوك بابل . ولكن حقيقته انه من العهد اليوناني الروماني ، فيما قبل المسيح بقرنين . وقد يهتدي به المسافر لمعرفة طريقه وهو ظاهر من بعيد ، مكوّن من مربع مبني بالحجارة المنحوتة ، مساحة واجهته تسعة امتار ، ويعلوه مربع آخر دونه حجماً ، وهو متوّج بهرم مرتفع القمة ١٧ متراً فوق سطح الارض .

اما المربّع الاول فعليه نقوش وتصاوير في كل جهة من جهاته . والمربع الثاني مخطط بعواميد ناتئة نتوءاً خفيفاً على سطح الواجهة . والنصب كان خراباً في احدى زواياه فرممته مصلحة الآثار اللبنانية ، واعادته الى سالف حالته . والتصاوير المنقوشة عليه تمثل حيوانات الصيد وآلاته من رماح وقسي وكنانات وفخاخ . وليس فيها اثر لصورة الانسان . الواجهة القبلية تمثل غزالة تهرب من كلب يطاردها ، والواجهة الشرقية فيها صورة خنزير برّي طعنته رماح ثلاثة ، وهاجمه كلبان . وفي الشمال غزالان احدهما منتصب على اقدامه ، والثاني بارك . اما الواجهة الغربية فعليها صورة دبّ ومعه صغيراه . وعلى التماثيل مسحة يد لها خبرة بالفن ، ولكن ليس فيها ما يدلّ على مهارة فائقة.

هذا النصب قريب من الهرمل وقد تصل طريق السيارات بينه وبين تلك البلدة وتسهل زيارته لمن اجتاز بلاد الراس بالسيارة . فما عليه الا ان يتوّجه من المحطة الحديدية نحو الغرب الى حيث يظهر النصب عالياً فيبلغ اليه ببضع دقائق.

ولا عارض يعترض المسافر وقد تأمنت البلاد بفضل الدورات العسكرية المنظمة .

سنة ١٨٤٥ تفشى في بلاد الهرمل مرض الدستنرية ، ففتك بالسكان فتكاً واباد الربع منهم . زار تلك البلاد آنذاك الرحالة طومسون واستراح في قرية الهرمل من عناء سفره وتعرف الى شيخها المتوالي ؛ ففاخر الشيخ بمياه بلاده وقال ان فيها اثنتي عشرة عيناً كل عين يدور عليها طاحون . وكان شجر الجوز يأتي باثمار وافرة وقد قطفوا من احدى غاباته في تلك الايام مئة الف جوزة ، على ما رواه طومسون ، ولكن ربما كانت تلك الغابة سبب الدستنرية التي فتكت بالسكان لانهم كانوا ينامون في ظلها ، وظل شجر الجوز سيئ مضر .

وبينما نحن في جوار الهرمل نشع النظر بمناظر الجبال والارياف والسهول ، وقد كستها اشعة شمس الشروق بهاء ونضارة ، اذ بسيارة تقطع الطريق من الهرمل الى الراس فهي كعنوان الحياة الجديدة التي دبت في هذه المجاهل وقربتها من بلاد العمران .

لقد شاهدت السهول التي حولنا مرور الجيوش والقوّاد منذ عهد الفرعون توتمس الاول وعهد الحثيين الذين تطاحنوا في البقاع بالقرب من حمص وبجيرتها الى عهد الاسكندر والرومان والبزنطيين والعرب والافرنج والترك والمماليك والاتراك وبقايا من طغا من المتاولة الحرافشة والدناديشة . وها ان علم لبنان يخفق على تلك البلاد ويدعو ابناءها الى زيارة آثارها الجليلة . فلا تنسَ ، ايها القارئ اللبيب ، في طريقك من شمالي سورية الى جنوبيها ، عن مسير نهريها الليطاني والعاصي ، ان تختلس من وقتك سويعات تقف فيها على مفارق المياه وتحيي ذكرى الزمان الماضي في مشاهدة آثار ابائنا الرهبان الاقدمين الافاضل ، أباس المسح الورعين المتقشفين ، وفي السلام على من مرّوا بهذه المجاهل من قواد وعظماء فقد بات اسمهم محفوظاً في طيات صخور المغارة وعلى جوانب العين الزرقاء .